فـــنان ... !

للاستاذ ثروت أباظه

يسقط على مجلسك دون أن تعرفه ، فلا تملك إلا أن تنعم فيه النظر ، فهو أشعث أغبر كأنه ابن السلكة قد وافى بعد إبنال فى شعاب الصحراء ... ضامر شاحب كأنه عامل قد أضرب عن الزاد ، قذر الملبس يذكرك بالمار أمام منزلك صندوقه على كتفه يصرخ بأعلى صوته (بوابير جاز أصلح)

تريد أن تسأله من أنت ... والويل لك إذا فعلت ... إنه لايسمح لإنسان ألا يعرفه وقد أفنى نفسه فى سبيل الشهرة .. إن غيره لا يجهد سوى عقله وقلمه فينالها . . أما هو الشاعر الحق فقد أجهد عقله حتى جهد . . وقلمه حتى تحطم وجسمه حتى ذوى ، ثم أنت لا تعرفه ؟ ! ففيم إذن أهمل هذه اللحية وجعلك لا تعرف أن كان يزيلها أو هو يرسلها . . . أليس هذا فناً ؟ . وفيم إذن أطلق حول أذنيه هذه الإطارات من شعره . . كثة تكاد تخفى أذنه . . طويلة توشك أن تصل إلى فكه . . وفيم إذن ركب لنفسه هذا الرأس الثانى من الشعر ... إن غطى الطربوش رأسه الأول بزر من خلقه يخبر أنه .. فنان .. لا. لابد أن تعرفه أردت أو لم ترد . . تعرفه هكذا دون أن يخبرك . . إن سألته من أنت ؟ ثار فى وجهك وزمجر واستأسد بعد خنوع ، إنه فنان يجلس إليك فيخبرك أنه لم ينم ليلته وأنه هكذا دائما . . هائم على وجهه فى غير مهيع . . . شارد فى غير مشرد إنه فنان . . والفن فى اعتقاده عزوف عن الراحة وشذوذ يفتعله هو . . قد لا يتحدث عن نفسه فيروح يرصف القواعد للمبقرية ويضع الخطوط الواضحة بينها وبين الاكتمال العلمى فهو يقول إن العلم شىء سهل الحيازة دانى القطوف . . يستطيع أى فدم أن يكون عالما ولكن المبقرية قبس من الأشعة الإلهية أرسله الله إلى صاحب القسمة فهو شارد اللب يمشى دون وعى ويجلس على غير علم ، إنه من الواصلين هكذا هكذا . . ولكن ماذا أفاد الرجل من كل هذا . . انتظر . . انتظر هاهو ذا يتبعه بجملته الخالدة ، والله كثيراً ما أمشى فى الشوارع دون أن أعرف لنفسى اتجاهاً ، إنه عبقرى ما أسهل العبقرية وما أشبه العباقرة بعمال التنظيم ... هكذا الرجل لا يهمه بعد هذا إن كان فنه ناضجاً أو فجاً . المهم أن يتشمور وأن يعرفه الناس هكذا وهو بعد فنان ... أراد الفن أو أبى ، لا تظلم الرجل إنه لا يأتى هـذا تصنعاً ولكنه تطبع طال به الأمد فأصبح طبعاً .

يتحدث إليك عن حب خاب وأمل خبا ، ثم عن حب مايزال متقد الجذوة ، وهو إن فعل نظر إلى شىء خلفه يشبه الإنسان وسأله ان يخبرك عن « ليلى » مايعلم فيأخذ شبه الإنسان فى الكلام واصفاً المحبوبة ... فتتوقع أنت فى هذه اللحظة أوصافاً تخجل الشمس إبان ضحوتها وتزرى بالغصن أوده الصبا ... تهيأ أذنك لأوصاف المحبوبة لا يخالجها شك فى جمالها وفتنتها ، ولكن هذا أمر طبيعى ليس فيه شذوذ ؛ أو يرتضى الفنان لنفسه أن تطلق على سجيتها الأولى ولو فى الحب ؟ لا ودون ذلك الفن أجمع ... ها هو ذا الواصف يخبرك أن الحبيبة سوداء مفلفلة الشعر معبلة ، مثقلة الشحم ؛ ثم يلتفت بعد هذا إلى الفنان يسائله فى عجب ما يزال متكلفاً : لم تحبها ... إن كثيرات غيرها يهوينك ويودهن لو نظرت إليهن ولو نظرة واحدة يلتفت إليك الفنان متعجباً من نفسه هو أيضاً ولكنه يحاول أن يغالط نفسه قليلا فيخبرك أن معشوقته شديدة الحساسية عليمة بنبضات الشعر وخفقات الشعور. وإنها — وهو المهم — تحترم شعوره الحساس الرقيق فهو قد يغضب وقد يضربها ولكنها لاتؤذى إحساسه بكلمة وتحافظ على كرامته ما وسعها الحفاظ ومهما كلفتها تلك الحطة من إجهاد لشعورها الرهيف ... وجماع أمرها وأمره أنها تفهمه وأنه يفهمها

عجيب أن يتكلم الرجل عن الكرامة ولكن كرامته هى الأخرى شاذة من نوع آخر ... فهو قد يسألك القرش على غير معرفة ولكنه مع هذا ذو كرامة — وهو يفرط فى الخمر على حساب غيره ثم يخرج إلى الطريق العام عريداً ... ولكنه ذو كرامة ... وهو ينتقى أقذر الملابس ويضعها على نفسه كما توضع البردعة ... وما يزال ذا كرامة .

إن الرجل ليس فقيراً ، فهو يعمل ويحصل على أموال كثيرة ولكنه يضيعها لا لشىء إلا ليستجدى ، ولعله يستجدى وهى فى جيبه لمجرد الشعوذة والمحافظة على كرامته الفريدة .